كاتبة من أصول عراقية أصدرت كتابا تحدثت فيه عن قضايا وأوضاع الجالية المسلمة في فرنسا

زهرة علي

باحثة فرنسية تروي حقائق عن الحركات النسوية الإسلامية

باريس : المعطي قبال

خاصة بهن. كما لا يتعلق الأمر بالطريقة التي يتموقع بها الفكر الإسلامي والمسلمون

بين النسوية النقدية والفكر الإصلاحي

في ظله يحظين بمكانة مرموقة. فيما بعد، أعادت الكثير من النساء النظر في التقاليد

بأن الإسلام ليس ديانة أبيسية، أو أبوية، بل على العكس، يدافع عن

تلاحم بين الإسلام والنسوية

تتأتى أهمية هذا الكتاب من كونه يحمل توقيع باحثة فرنسية من أصول عراقية، (والباحثون والأكاديميون الفرنكوفيون من أصول عراقية، ليسوا ظاهرة علمية في الجامعات الفرنسية). وصلت زهرة علي رفقة عائلتها وهي في سن السادسة عشرة. بالموازاة مع دراستها، انخرطت في العمل الجمعوي بالأحياء الشعبية الشيء الذي صقل نظرتها ووعيها تجاه قضايا وأوضاع الجالية المسلمة، وبالأخص تجاه وضعيات النساء المسلمات. بعد أن حصلت على شهادة دكتوراه بمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس، والمعهد الفرنسي للشرق الأوسط (ومقره في بيروت)، تخصصت في مجال دراسات «الجندر» Le Genre، بالشرق الأوسط. وتتمحور أبحاثها حول موضوع انبثاق دينامية نسوية إسلامية، وكذا حول موضوع الحركات النسائية في العالم العربي، وبالأخص في العراق. وفي إطار إعدادها لدبلوم ماستر، تحت إشراف الباحثة التركية نيلوفير غول، اهتمت زهرة علي بقضية ظهور وعي نسوي إسلامي بفرنسا. اليوم تتركز أبحاثها على حركة النساء بالعراق لما بعد 2003، وعن تاريخ النساء العراقيات، وبصفة عامة عن قضايا «الجندر» بالعراق الحديث. ويتألف الكتاب من سلسلة مقابلات مع باحثات وأخصائيات في المسألة النسوية بالعالم العربي، من أمثال مارغو بدران، أسماء المرابط، أسماء برلاس، زيبا مير حسيني، زينة أنور، أميمة أبو بكر، سعيدة قادة، حنان اللحام.

هل هناك نسوية إسلامية؟ ثم ما دلالتها؟

الملاحظ أن مثل هذه الأسئلة لا يطرح في الديانة اليهودية أوالمسيحية». وطرحه في إطار الديانة الإسلامية معناه أن الحديث عن «العالم الإسلامي» وعن «المرأة المسلمة» هو من المنظور الغربي من عاديات الأمور. المشكل هو أنه لا يأخذ في عين الاعتبار التنوع والتعقد السوسيولوجي لغالبية المجتمعات الإسلامية، إذ في الغرب ترى الأغلبية في الإسلام عامل كبح وسببا رئيسيا في «تخلف» و«تأخر» العالم الإسلامي. وتصبح المرأة ووضعها المتدني الذريعة الدامغة والعلامة التي تشهد على «الظلامية» السائدة في هذه المجتمعات.

يسعى هذا البحث إلى إحداث قطيعة مع التوجه الاستشراقي، كما يعمل على التصدي للعنصرية. ويميز هذين العنصرين النقاش والمساجلات حول قضايا النساء والإسلام اليوم. طموح الباحثة هو إحداث قطيعة مع المقاربات الثنائية، مع تخليص القراءات المطروحة للمسألة النسوية في علاقتها بالإسلام من الطابع الاستشراقي والنيو-كولونيالية. يتعلق الأمر إذا بولوج أو الدخول في جوانية وعمق عالم النساء المسلمات، مع النظر في طريقة طرحهن لمسألة المساواة تبعا لطرق وإشكاليات من حول قضية المساواة بين الجنسين داخل الإطار الديني الإسلامي، وأطر أخرى يلعب فيها الإسلام دور المرجع الرئيس. هذا البحث، الذي يعتبر ريياديا في ميدانه بفرنسا، والذي يجمع مقالات وحوارات لمثقفات وباحثات وناشطات، منخرطات جميعهن في الدفاع عن حقوق النساء داخل الإطار الديني الإسلامي، يجيب بالإيجاب عن سؤال: هل هناك حركة نسوية إسلامية؟ نعم هناك حركة نسوية إسلامية، وليست هذه الحركة وليدة اليوم. وقد وضعت النصوص التي يتضمنها هذا الكتاب، والتي تترجم لأول مرة إلى اللغة الفرنسية، (وضعت) الدينامية النسوية الإسلامية. وعليه، فيمكن اعتبار هذا الكتاب مدخلا إلى الحركة النسوية الإسلامية وقاعدة تفكر في آفاق جديدة تخص الطريقة في طرح العلاقة بين النساء، بين الحركات النسوية والإسلام.

مقاومة للأبحاث في موضوع النسوية الإسلامية

في الوقت الذي نتوفر فيه على بيبلوغرافيا مهمة باللغة الإنجليزية، تبقى الدراسات عن الحركة النسوية الإسلامية بالفرنسية محدودة جدا. كما أن الحقل الأكاديمي لا يبدي استعدادا ولا اهتماما لمعالجة المسألة. فضلا عن أن الموضوع لا يتجاوز في الغالب المعنى العام السائد، دون الحديث عن المعارضة التي يواجهها من طرف الحركات النسوية التي تعتبر الدين وبالأخص الإسلام «ديانة مناهضة لتحرر النساء»، وأن الديانات أبوية، وبالأخص الديانة الإسلامية، وبأن الصراع بين الجنسين يمر عبر إبعاد كل ما هو ديني. في الطرف الآخر، تعتبر بعض المسلمات أن المسألة لا تعدو كونها تغريبا (إضفاء سمة الغربية) للإسلام، وتتعامل مع هذا الأخير كإطار مكتمل معاد لأية دينامية تجديدية. وعليه، تواجه الحركة النسوية الإسلامية نفس «الماهيوية»، essentialisme، وهي النزعة التي تعرف بالإسلام كحقيقة ثابتة ودوغمائية بالأساس، وبالنسوية كأنموذج وحيد وبديل لحداثة غربية معيارية.

الإصلاحي

يقترح هذا المؤلف النظر في أسس هذه القضايا باقتراحه لقراءات بديلة للدوكسا النسوية، التي ترفض ربط الصراع من أجل المساواة بين الجنسين بالدفاع عن الديانة الإسلامية. الباحثات المناضلات اللائي أخذن الكلمة يتقاسمن هما واحدا: الدفاع عن الإسلام، وعن إسلامية انخراطهن ودفاعهن عن حقوق النساء، وتعتبرن أن المساواة تشكل صلب الديانة الإسلامية، وبأن رسالة الوحي القرآني تبقى الضامن القوي لحقوق النساء. يرسم هذا الكتاب موقعه بين التقليد النسوي النقدي، والفكر الإصلاحي الإسلامي المعاصر، ويخاطب جمهورا عريضا، كما يطمح إلى أن يكون أداة للتفكير بين يدي المسلمين وغير المسلمين الراغبين في صياغة تفكير وتحليلات تقطع مع التمركز الذاتي، الماهيوية والنزعة المحافظة التي تدمغ طرق وأساليب معالجة العلاقة بين النساء، النسويات، والإسلام اليوم.

على خط التقاطع بين النسوية والإسلام

إن لم نحصر النسوية الإسلامية في معناها الأكاديمي الحديث كما انبثق خلال العشرين سنة الأخيرة، يمكننا أن نعتبر بأن ثمة مطالبات لها طابع نسوي طرحت منذ سنوات. ويمكن العودة إلى فترة نزول الوحي للعثور على أولى الاحتجاجات والمطالبات التي عبرت عنها بعض النساء من أجل إعادة النظر في وضعيتهن، وفي ظل المجتمع الإسلامي الناشئ. فقد عارضت عائشة ابنة أبو بكر الصديق، أول خليفة، وزوجة الرسول وغيرها من نساء الإسلام في فترة نزول الوحي التصرفات الذكورية لبعض الرجال، والتعديات التي استهدفتهن. أحد الأمثلة الناطقة والحية، هو السؤال الذي طرحته أم سلمة، زوجة الرسول، في مسألة أن القرآن يتوجه بوضوح إلى الرجال للمطالبة بأن يخاطب النساء أيضا، وذلك فيما يخص الجزاء والاعتراف بأعمالهن النبيلة. كان جواب القرآن من خلال آيتين، هو تلبية هذا الطلب. بنفس الطريقة كان المجتمع المدني أقل أبوية، وكانت النساء الذكورية، وفي رغبة الرجال التراجع عن المكتسبات والحقوق التي خص بها الوحي النساء.

الصياغة الحديثة للنسوية الإسلامية

هناك صياغة حديثة للمسألة النسوية الإسلامية، وقد رافقت تطور المجتمعات الإسلامية. أولا، كحركة ثقافية إصلاحية مسلمة انبثقت في نهاية القرن التاسع عشر، ثم على شكل حركات اجتماعية في إطار النضالات الوطنية والمناهضة للاستعمار، عند بداية القرن العشرين. طرحت مسألة حقوق النساء في الإسلام من طرف مفكرين إصلاحيين مسلمين من أمثال محمد عبده، أحد تلامذة جمال الدين الأفغاني، وأدخل هذا الأخير، ومن بعده محمد إقبال، تفكيرا أساسيا يتعلق بفهم دينامية الفكر الإسلامي، وبالأخص من خلال استعمال الأداة الشرعية والاجتهاد، الذي يتيح إعادة التفكير في الإسلام. حملت هذه النهضة الإسلامية خطابا جديدا يدعو إلى العودة إلى الأصول (القرآن والسنة)، مع تضمنها للتنديد بقدسية آراء العلماء القدامى.

نقلة في الخطاب الإسلامي

بفضل نزعات الإصلاح الإسلامي، عبرت الحركة النسوية الإسلامية عن ذاتها في المجتمعات الإسلامية. لم تكن تابعة للنسوية الأوروبية، بل تزامنت مع انبثاقها، وعبرت عن نفسها من خلال مجابهتها للوضع الكولونيالي. وحالة مصر في هذا النطاق معروفة جدا. وقد أظهرت أشغال مارغو بدران شفافية الحدود بين النضال العلماني والديني، في نطاق يلعب فيه الديني دور المرجعية الرئيسية في المجتمع، فقد أعطت الكثير من الوجوه الوطنية والنسوية والمعروفة بميولاتها اللائكية، أهمية بالغة للمرجع الديني. فقد روجت، في هذه الفترة، المناضلات النسويات العربيات آنذاك، وباستنادهن على أطروحات إصلاحية، الفكرة القائلة بفضل النساء اللائي عقدن الصلة بالإسلام والتي انخرطن في ديناميات إسلامية، انبثاق وعي نسوي في مناخ يعاني فيه الإسلام من التمييز والشجب.

ضمن التطورات الأخيرة لما سمي بـ «الربيع العربي» رأى بعض الملاحظين بأن محاولة هذه الحركات الشعبية إعادة النظر في الاستبداد، أدت أيضا إلى طرح تساؤلات عن الإسلام السلطوي، وعن الأورثوذوكسية الإسلامية. الحضور الكثيف للنساء في صفوف المتظاهرين، ومركزية انخراطهم في المسلسلات الثورية، تطرح من جديد قضايا «الجندر» في قلب الحركات الاجتماعية والشعبية. يجب متابعة الانعكاسات الحقيقية للنشاط والانخراط الوازن للنساء في الثورات العربية، سواء على مستوى العقليات أو على مستوى الفكر الإسلامي أو القانوني. إلى الآن يبدو أن هذا الانخراط لم تتبعه نتائج على مستوى التمثيلية السياسية.

النسوية الإسلامية المعاصرة

صحيح أن الفضل يرجع في طرق موضوع الحركة النسوية والإسلام إلى النخبة من المثقفين والباحثين، وبالأخص أولئك الذين يعملون في حقل العلوم الاجتماعية والمتحدرين من ثقافات إسلامية، وإلى الناشطات النسويات المسلمات اللائي يناضلن من أجل تحقيق المساواة بين الجنسين داخل الإطار الديني الإسلامي، وصحيح أن من يعنيهن الأمر لم يتعرفن على أنفسهن في هذه التسمية إلا في المدة الأخيرة وبصفة نقدية، لكن اللائي ساهمن في دمقرطة مفهوم النسوية الإسلامية، بالشكل الذي ظهر عليه في بداية التسعينات، هن في الأغلب نساء منخرطات في الشبكات الثقافية والنضالية، يبحثن عن الربط بين التأمل في قضايا «الجندر» والالتزام الاجتماعي من أجل تحسين أوضاعهن.

منشورات لافابريك

الكتاب يعتبر مدخلا إلى الحركة النسائية الاسلامية وقاعدة تفكر في آفاق جديدة تخص طريقة طرح العلاقة بين النساء وبين الحركات النسوية والإسلام

المساواة تشكل صلب الديانة الاسلامية وأن رسالة الوحي القرآني تبقى الضامن القوى لحقوق النساء